مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، فصلية علمية محكمة، العدد ال٤٦، ربيع ١٣٩٧ هـ. ش/ ٢٠١٨ م؛ صص ٢٠-١

الآخر الإنكليزي في مرايا الأنا الشرقية المختلفة «كتاب «الجسد حقيبة سفر» لغادة السمان نموذجاً»

هادي نظري منظم[١]*، خليل برويني[٢]، نازنين هدايتي[٣]

١. أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس

٢. أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس

٣. ماجستيرة في اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس

تاريخ استلام البحث: ١٣٩٥/١١/٢٩ **تاريخ قبول البحث:** ١٣٩٦/٠٦/١٢

الملخّص

الأنا في الأصل تُبنى بالعلاقة مع العالم، والوعي بالذات يمرّ بالآخر، والشعور بالهوية يبرز في مواجهته؛ فالأنا والآخر ركنان أساسيان في علم الصورة، الذي يُعنَى بدراسة الصورة الثقافية للآخر في الآداب القومية. إنّ غادة السمان روائية وشاعرة ورحّالة سورية ألّفت لحد الآن خمسة كتب في أدب الرحلات، أوّلها "الجسد حقيبة سفر" وفيه تناولت الآخر الأوروبي وخصّصت للإنسان الإنكليزي النصيب الأوفر من حديثها. والمنهج في هذا المقال وصفي-تحليلي، ونختمّ على نحو خاص بدراسة الآخر الإنكليزي وثقافته من منظور صورولوجي، كي نفهم خصوصية الأنا والآخر والأوهام والانحرافات الفكرية لكلّ منهما تجاه الآخر، ولكي نتجنّب أخطاراً كثيرةً تهدّدنا وتهدّد الجيل العربي والإسلامي الصاعد. ويستفاد من إشارات السمان المبعثرة أنّ الآخر البريطاني– رغم ما يتمتع به من الرقيّ المادي وتوافر الحرية والصدق والكرامة والثقافة والفن– يجابه اليوم واقعاً مأساوياً يتمثّل في أمور أهمّها ضياع الجيل الجديد الناشئ عن انهيار قيم العصر القديم (حب، دين، أخلاق) وعدم إيجاد بديل لها عندهم، وهناك أيضا تحكّم الحياة الآلية، وعقدة العظمة والإمبراطورية، الحائلة بين سياسات الدولة والجيل الجديد هناك، والتزايد المستمرّ لهيمنة نمط الحياة والثقافة الأمريكية، وقد نتجت عن هذا كله ظواهر سلبية كالشذوذ والإباحية والعنف ورواج اللامبالاة والاستخفاف بالعمل واستهلاك البضائع الأجنبية وبالتالي سقم الاقتصاد البريطاني وانهيار الصناعة.

وتحاول السمان أن تلتزم الموضوعية وأن تُقدّم صورةً متحررةً من سيطرة الإيحاءات السلبية التاريخية والنفور العربي العفوي من شعب الإمبراطورية الاستعمارية، فتُشيد بتوافر الحرية والصدق والكرامة وسيادة الفن والثقافة في بريطانيا، ولكن حجم التحولات والقضايا التي يعيشها كلّ مجتمع حجم كبير ومتشعّب لا يمكن لعمل فني أن يحيط به أو يلتقطه التقاطاً موضوعياً تامّاً؛ من ثمّ تكون علاقة الإبداع بالواقع أو المجتمع علاقةً غير مباشرة وأبعد ما تكون عن التطابق.

الكلمات الرئيسة: علم الصورة؛ الآخر؛ بريطانيا؛ غادة السمان؛ الجسد حقيبة سفر.

---

*الكاتب المسؤول hadi.nazari@modares.ac.ir

١. المقدّمة

في ضوء قرية كونية جديدة لا تُصبح للحدود فيها نفسُ القداسة التي تمتّعت بها منذ نشوء الدول القومية الحديثة، ليس بإمكان أي شعب، بل وأي شخص أن يعيش في عُزلة عن العالم من حوله ثقافيا وعلميا واقتصاديا وسياسيا. فالإنسان كائن اجتماعي ولا تهدد العزلة وجوده الإنساني، «لأن العزلة مستحيلة، ولكن تُهددها بعضُ أشكال التواصل، المفقرة والسالبة، كما تهددها التمثلات الفردية لهذا الوجود» (تودوروف، ٢٠٠٩م: ٢٢١). وإذا صحّ أنه لا سعادة من غير الآخرين، فيصحّ أيضا أن هؤلاء الآخرين قد يمسكون بأدوات لهدمها. «يُولد اضطراب حياتنا من عواطفنا أكثر مما يولد من حاجاتنا» (نفسه: ٢٢٥). إننا من غير الآخر ناقصون لكن صورة هذا الآخر كانت وما تزال تتعرض إلى تزييف متبادل وتشويه مبرمَج، وذلك تحت تأثير الأحداث السياسية والصراعات العقائدية والاستراتيجية التي تعصِف بالشعوب، وقد نتج عن هذا كله خطاب أدبي مضطرب ومنحرف يقوم على الروح العدائية، والرغبة في قولبة الآخر في صور مشوهة تُذكي نار سوء التفاهم بين الشعوب، وتدفع الأمم والدول والثقافات إلى التخاصم.

ثم إن الإنسان الحديث ـ أينما كان ـ يعاني من قضايا ومشكلات جديدة؛ فوسائل الحياة الحالية من تقنية وإعلام وعلاقات اقتصادية قد «حوّلت الإنسان من غاية للحياة إلى وسيلة لتحقيق أكبر قدر ممكن من الربح والمنفعة. حتى حرية هذا الإنسان وأخلاقه وعقله نالها التسلع» (الحاج صالح، ٢٠١٤م: ٤٦٦).

وأما على الصعيد الدولي فنجد أن الدول المختلفة دائمة القلق أيضا وتنظر إلى جيرانها وحتى حلفائها بتوجّس أو رهبة؛ منها مثلا دول الاتحاد الأوروبي التي «تسير في فلك الولايات المتحدة، ودولتاها ذواتا العضوية الدائمة في مجلس الأمن وهما بريطانيا وفرنسا تؤيدان الولايات المتحدة دائما حين يكون هذا التأييد ضروريا. ومع ذلك فدول الاتحاد الأوروبي تنظر إلى حليفتها الكبرى بتوجّس حتى أصبحت هذه الدول تُحسّ بالتهديد المباشر وغير المباشر لشخصيتها وهويتها الثقافية» (الأسد، ١٩٩٧م: ٩٢). يذكر طه ندا نقلاً عن هنري جيفورد: «إن الاتجاهات الأمريكية تتدفق إلى الحضارة الأوروبية والانجليزية، وإن الكاتب الانجليزي وكذلك القارئ يشعر بهذا الغزو الأمريكي القوي للغة الإنجليزية في بيئتها وموطنها وقد فشل الإنجليز فيما بذلوه من جهود للمحافظة على لغتهم نقيةً سليمةً، ولم يَعُد أمامهم سوى التسليم بآثار الأدب الأمريكي التي تزداد في أدبهم يوماً بعد يوم وتتحكم في توجيهه. بل إن التفكير الاجتماعي الإنجليزي قد أخذ هو الآخر يتأثر بنماذج أمريكية» (ندا، لا تا: ٢٤).

فالإنسان المعاصر يعيش أزمة هوية حقيقية والغزو الثقافي الأمريكي أمر بدهيّ، وهو يهدد جميع الدول والشعوب بما فيها الشعب العربي والإيراني. فالمعروف أن الآخر طريق للأنا، وهو مرآة ترى فيها إيجابياتها وسلبياتها، ومن هنا يحاول هذا البحث أن يسلط الأضواء على موقف الآخر الإنكليزي الوارد ذكره في كتاب **الجسد حقيبة سفر** من التحديات الخارجية والواقع الراهن؛ فالدراسة تدخل في مجال علم الصورة، وتحاول الإجابة عن الأسئلة التالية:

١-١. أسئلة البحث

- ما هي التحديات الخارجية والمحلية التي تهدّد الآخر الانكليزي من منظور السمان في الكتاب المذكور؟
- كيف يتجلى الآخر الإنكليزي في الكتاب المذكور ولماذا؟
- ما هي الفوائد التي يكتسبها القارئ الإيراني والعربي على السواء من خلال معرفته لهذه التحديات؟

٢-١. خلفية البحث و جدّته

حظيت روايات السمان وقصصها القصيرة وشعرها باهتمام الكثير من الباحثين في الأقطار العربية وفي إيران؛ منهم مثلا بثينة شعبان ولها مقالة بعنوان: «بين الأدب النسائي العربي والأدب النسائي الإنكليزي: غادة السمان وفرجنيا وولف» (١٩٨٦م) وبينت فيها ما بين الأديبتين من تشابه. وثمة كتاب "الحرية الوجودية بين الفكر والواقع" (لا تا) لغسان السيد وقام بمقارنة موضوع حرية المرأة عند السمان وسيمون دوبوفوار. وفي إيران ترجم عبدالحسين فرزاد بعض أشعار السمان إلى الفارسية: "دربندكردن رنگين‌كمان" (دار نقرة للنشر: ١٣٦٨ش)؛ "غمنامه‌ای برای یاسمن‌ها" (طهران: دار چشمه للنشر: ١٣٧٧ش)؛ "زنی عاشق در میان دوات" (طهران: دار چشمه للنشر: ١٣٨٠ش) و... كما ترجمت سمية آقاجاني روايتها المعنونة: "بيروت ٧٥" (دار ماهي للنشر)، ونقلت نرگس قنديل زاده مجموعة من قصصها القصيرة بعنوان "الدانوب الرمادي إلى الفارسية" (دار ماهي للنشر). ومن المقالات التي اهتمت بدراسة رواياتها في إيران نذكر: «مظاهر الخرافة في المجتمع العربي، دراسة في روايات غادة السمان نموذجا» (مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، العدد ٢٠، ٢٠١١م)، كتبها حجت رسولي بالتعاون مع سمية آقاجانى وعالجا قضية اعتقاد العرب بالخرافات في روايات السمان. وهناك أيضا: «تنهایی روشنفکر در رمان‌های غادة السمان و غزالة

عليزادة»، كتبها يدالله احمدي ملايري وسمية آقاجاني (أدب عربى، العدد الأول، السنة الخامسة: ١٣٩٢ش) وثمة أيضا: «جلوههاى ادبيات شگرف در رمان كوابيس بيروت نوشته غادة السمان»، كتبتها زينب نوروزى ومحدثة هاشمي (لسان مبين، العدد ١٦، ١٣٩٣ش).

ومن المنظور الصورولوجي تناول بعض العرب والإيرانيين صورة الآخر في روايات السمان، منهم عبده عبود، وله مقال بعنوان: «صورة الآخر الغربي في أدب غادة السمان» (٢٠٠٢م) والمقالة موجزة جدا، وتفتقر إلى التحديد الدقيق وتخلو من المباحث النظرية ومع ذلك تتضمن إشارات قيمة ولكنها مبعثرة. ومن هؤلاء أيضا سمية شنوف، وقد أفردت الموضوع برسالة جامعية بعنوان: "تمظهر الآخر في روايات غادة السمان" (٢٠٠٥م) ونشرت ملخصا لها في مجلة الإنسانيات (أربع صفحات). ويستفاد من هذا الملخص أن الباحثة قد عرضت تمظهرات الآخر العربي فحسب: الرجل، المرأة، الطائفي، الطبقي، المثقف المهاجر، والمكان، فالآخر هنا لا يخرج عن نطاق الأمة العربية؛ ومن هنا يفتقر البحث إلى الدقة والمنهجية العلمية المتبعة في الدراسات الصورولوجية في معناها الخاص والمحدد. وثمة كتاب بعنوان: "إشكالية الأنا والآخر«نماذج روائية عربية»" (٢٠١٣م) ألفته ماجدة حمود ويتضمن مقالات مهمة منها «الأنا في مرآة الفرنسي إثر الحرب الأهلية اللبنانية في رواية غادة السمان: سهرة تنكرية للموتى» وقامت الباحثة بدراسة الشخصيات الفرنسية الموجودة في هذه الرواية وحدها.

وثمة رسالة جامعية في إيران وعنوانها: «صورة الآخر في رواية سهرة تنكرية للموتى لغادة السمان» (١٣٩٣ش) والباحثة تناولت الرواية المذكورة بالدرس، ولكن دراستها هذه تقتصر على الرواية المذكورة فحسب، وقد أعدّت بعقلية الدارس غير المتخصص، وتبتعد عن المصطلحات الغامضة والتعقيدات الفكرية وتقترب من الظاهرة التبسيطية العامة في الدراسات الأدبية المعاصرة. أما الدراسة الوحيدة عن الآخر في "كتب الرحلات" للسمان فهي تلك الرسالة المنهجية التي أعدتها كاتبة هذه السطور سنة ٢٠١٧م وعنوانها: «تجليات الآخر الأجنبي في أدب الرحلات لغادة السمان» وفيها تناولت صورة هذا الآخر في كتابين اثنين من أعمال السمان في أدب الرحلات: «الجسد حقيبة سفر»، و «شهوة الأجنحة». وهناك مقال استلّته الباحثة من رسالتها وعنوانه: صورة الآخر الشرقي في أعمال غادة السمان (كتاب "شهوة الأجنحة" نموذجا). والمقال سينشر في مجلة "كاوش نامة" التي تصدرها جامعة رازي بكرمانشاه.

إذن يستفاد مما تقدّم أنّ صورة الآخر الأجنبي في كتب الرحلات للسمان دراسة جديدة لم تظفر بعد بعناية أي من الباحثين والمقارنين، ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث وجدّته.

٣-١. منهج البحث

يعتمد هذا البحث المنهج الوصفي . التحليلي، ويهتم بدراسة الآخر الإنكليزي وثقافته في ظلّ التحديات المعاصرة من منظور صورولوجي ومقارن. وكانت الإشارات إلى هذا الآخر مبعثرة في تضاعيف "الجسد حقيبة سفر"، فحاولنا أن نستجمعها من مواضع شتّى وأن نربط بينها بخيط متين كي يخرج القارئ منها بنتيجة واضحة. وقد انطلقنا في الأغلب من لغة الكاتبة ونصوصها بدلاً من إعادة صياغة هذه اللغة والأفكار بلغة ثانية قد لا تتطابق مع الأصل.

٢. التعاريف

١-٢. علم الصورة وعناصر تكوينها

لا شك أن الأنا تُبنَى في الأصل بالعلاقة مع العالم، والوعي بالذات يمرّ بالآخر، والشعور بالهوية يبرز في مواجهته. والأنا لغةً ضمير مفرد يخصّ المتكلم ولا تثنية له إلا بنحن. يصلح نحن في التثنية والجمع (ابن منظور: مادة أنا) وهي عند بعض الأدباء والنقاد تقسم إلى ثلاثة أقسام أساسية: الأنوات الفردية أو الشخصية، الأنوات الاجتماعية، والأنوات البشرية التي تتجاوز الحدود الضيقة للزمان والمكان (انظر: شفيعى كدكني، ١٣٨٧ش: ٨٧-٨٨).

والآخر لغةً هو"غير"، كقولك: رجل آخر (ابن منظور: مادة أخر)؛ وفي المعنى القريب البسيط هو«كل من يقارب الأنا وأنت ونحن؛ أما في المعنى الاصطلاحي الأبعد- وهو المراد هنا- فالأمر مختلف» (أفاية، ١٩٩١م: ١١). وما ذلك إلا «لأن في الوجود الإنساني آخر دينيا ومذهبيا وقوميا وعرقيا وجغرافيا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا؛ فتتعدد دوائر الآخر ومستوياتها بتعدد دوائر الأنا ومستوياتها. ويختلف تحديد الآخر تبعا لموقع الناظر إليه؛ فالآخر بالنسبة للذات الدينية هو ذلك الإنسان الذي ينتمي إلى دين آخر، أما الآخر بالنسبة إلى الذات القومية أو العرقية فهو الذي ينتمي إلى قومية أو عرقية أخرى» (الهروط، ٢٠٠٨م: ١٣).

الأنا والآخر ركنان أساسيان في علم الصورة. والحقيقة أن «لفظة علم الصورة من الجدّة بحيث لا

نجد معادلا لها حتى في القواميس الجديدة» (نامورمطلق، ١٣٨٨ش: ١٢١). يقول المقارن الفرنسي باجو: «كلّ صورة تنبثق عن إحساس–مهما كان ضئيلاً– بـ"الأنا" بالمقارنة مع "الآخر" و بـ"هنا" بالمقارنة مع "مكان آخر". الصورة هي إذاً تعبير أدبي أو غير أدبي عن انزياح ذي مغزى بين منظومتين من الواقع الثقافي» (باجو، ١٩٩٧م: ٩١). بعبارة أخرى إن الصورة هي «تمثيل فردي أو جماعي يدخل فيها–في وقت واحد– عناصر ثقافية وتأثيرية، موضوعية وذاتية. فلا يمكن لأي أجنبي أن يرى بلداً كما يريد أهله أن يراه. بمعنى أن العناصر التأثيرية تفوق العناصر الموضوعية» (بيشوا وروسو، ٢٠٠١م: ١٤٤).

إن الصورة الأدبية التي يرسمها أديب ما لشعب آخر تتكون من عناصر خاصة، منها ذلك المخزون الواسع من الكلمات التي تنقل صورة الآخر لنا وهي حقول معجمية تكوّن مفاهيم ومشاعر مشتركة بين الكاتب وجمهوره؛ لذلك يجب أن نميّز بين الكلمات النابعة من البلد الناظر والتي تفيد في التعريف بالبلد المنظور. ومن المعروف أن الصورة لغة وهي ترجع إلى الواقع الذي ترسمه، لكن الخيال هو الذي يرفع لغة الصورة إلى مرتبة الجمال الفني وهو في الوقت نفسه تعبير عن المجتمع والثقافة. ونحن نجد الصورة موازية للأسطورة ولو قارنّا بين اللغة الرمزية واللغة الأسطورية نستطيع أن نبين أن الصورة مثل الأسطورة تمتلك القدرة على الرواية، إحياء قصة ما وجعلها نموذجية، تتحرك في عصرنا عبر رؤية الماضي. ومن العناصر المكونة أيضا تلك العناصر التي تتكثف فيها تعبيرات الآخر والسمات والحركة والحديث والعلاقات الاجتماعية والعناصر التي تتعدى التعريف البسيط حاملة دلالة خاصة ضمن آلية النص. وهناك الوصف المخالف الذي يساعد على تقديم صورة الآخر من خلال ثنائيات متناقضة تدمج الطبيعة والثقافة مثل متوحش مقابل متحضر، إنسان مقابل حيوان ورجل مقابل امرأة. ومن المكونات أيضا وصف جسد الآخر ومنظومة قيمه ومظاهر ثقافته بالمعنى الإناسي (مثل الدين واللباس والموسيقى والمطبخ) وكذلك المعطيات التاريخية التي تعني الأخبار ذات الطبيعة المزدوجة (سياسية، اقتصادية) تستطيع أن تساعد على الكشف عن الدلالة الاجتماعية والثقافية للنص كما تستطيع الدراسة المعجمية للصورة الكشف عن الدلالة النصية. ومن المفيد أن نجد الدارس قبل أن يبدأ بحثه في صورة الآخر يُعيدُ فحص موقفه الفكري ومنظومة قيمه ويمتلك القدرة على النقد الذاتي تجاه ممارساته الثقافية كي يستطيع دراسة صورة الآخر التي تكوّنت في الماضي من أجل فهم الحاضر والتأسيس لمستقبل أفضل (انظر: برونيل وآخرون، ١٩٩٩م: ١٨٠ وحمود، ٢٠٠٠م: الفصل الأخير).

وتوفّر أدب الرحلات مادة دسمة لعلم الصورة. فـ«الاختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة، إضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وطباعهم، والتحقيق في دياناتهم ونُظُم حكمهم، غالبا ما تضع أمام الفرد مجالا طيبا للمقارنة، كما تساعده . ولا شك . على تقييم نُظُم وتقاليد بلده وموطنه. ولكون الفرد يتشكل عامة في إطار معين من التقاليد والعادات التي ينشأ عليها ويألفها فإن حكمه على الشيء المخالف لها يأتي عادة محمّلاً بقدر كبير من التعسف والتحيز» (فهيم، ١٩٨٩م: ١٧). وقد قيل: إن الرحلة «إغراءٌ و وسوسات وثقافة، تخرج من واقع معيّن لتنطلق إلى الورق فتتخذ شكلَ المذكرات أو اليوميات أو الرحلة العاطفية لتصير أدبا بعد ذلك فتدخل في الأفكار التي تُوجّه الأدبَ في إطار من سيكولوجية الشعوب وتُساهم في صنع الأساطير» (عبدالعزيز، ٢٠٠٢م: ٢٥٧/٢). إذن يمكن القول مع شحاتة بأن «سلوك الفرد تجاه الآخر يتأثر بالانطباع الذي يتكون عنه استنادا إلى طريقة الإدراك وكيفية التعامل مع المكون الثقافي والاجتماعي لهذا الآخر» (شحاتة، ٢٠٠١م: ٤٠).

٢-٢. حالات قراءة الآخر

وقد ذكروا لحالات فهم الآخر وقرائته ثلاث حالات، الأولى: التشويه السلبي، والمقصود به حالة العداء للآخر؛ فيبرز عند ذلك الواقع الثقافي الأجنبي في مرتبة أدنى من المحلي. الثانية: التشويه الإيجابي، وفيه يرى الكاتب الواقع الثقافي الأجنبي متفوقا بصورة مطلقة على الثقافة الوطنية الأصلية. والثالثة: التسامح، وفيه تنطلق دراسة الصورة من رؤية متوازنة للذات والآخر (للتفصيل، انظر: حمود، ٢٠٠٠ م: ١١٩-١٢٠).

٣. القسم التطبيقي

للسمان خمسة مؤلفات في أدب الرحلات: "الجسد حقيبة سفر" (١٩٧٩م)؛ "شهوة الأجنحة" (١٩٩٥م)؛ "القلب نورس وحيد" (١٩٩٨م)؛ "رعشة الحرية" (٢٠٠٣م)؛ "امرأة على قوس قزح" (٢٠١٥م). أما الجسد حقيبة سفر فيقع في ٥٢٠ صفحة وهو مجموعة من المقالات والمذكرات الأدبية التي نشرتها من قبل في مجلتين عربيتين: مجلة "الأسبوع العربي" ومجلة "الحوادث اللبنانية". يتبعثر ذكر الآخر الإنكليزي ويتردد في مختلف صفحات هذا الكتاب وقد حظي بالنصيب الأوفر من اهتمام السمان، يليه الآخر الإسرائيلي، فالفرنسي، فالإيطالي، ثم النمساوي، والألماني وإلخ، كما نال الأنا العربية اهتمام المؤلفة.

وهذه الأنا قد تكون شخصيةً أحيانا وقد تكون جماعيةً أو وطنيةً أو إنسانيةً.

والحق أن السمان نفسها تعترف باستحالة معرفة لندن؛ إذ فيها كثير من المفارقات والتناقضات والظواهر المستحدثة التي تستعصي على التحديد الجامع والمانع، لكنها مع ذلك خير وسيلة للأنا كي تعرف نفسها في مرآة لندن وأهلها: «معرفة لندن أمر مستحيل. إنها غنية بالمظاهر البشرية المتعددة التي تستحيل الإحاطة النهائية بها. وكلّ ما يملكه إنسان مثلي أقام فيها سنوات ويعود إليها كلما سنحت له الظروف هو أن يرصد بعض مظاهرها المتناقضة، الثرية العرض للمهزلة الإنسانية، وأن يحاول اكتشاف المزيد من وجهه الحقيقي الممزق في مرآتها المحطمة. وفي لندن دائما جديد تستطيع أن تزوّدك به، جديد عن الفن، عن الفضيحة، و عن ذاتك» (نفسه: ٣٤١).

وفيما يلي نتطرق إلى أزمة الآخر البريطاني في الستينيات والسبعينيات للقرن العشرين، تلك الأزمة القائمة آنذاك على مختلف الصعد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ثم نذكر بعض الإيجابيات عند هذا الآخر على ضوء ما أوردته السمان في كتابها المبحوث. فلنبدأ بالصعيد الاجتماعي، وفي هذا المضمار نرى ما يلي:

١-٣. اتساع الهوة بين الأجيال وانحسار الأخلاق والعقل

تعود بنا السمان أولا إلى لندن الستينيات وجيل هذا العقد، ثم تشير إلى الهوّة العميقة الناتجة عن تبدّل النظرة بين أهل هذا الجيل (جيل الامبراطورية) والجيل الطالع (الرافض للإمبراطورية البريطانية ونزعتها الاستعلائية) فتُشبّه لندن الستينيات بقصر يسكنه مجانين: «قصر إمبراطوري عتيق، الكبار فيه يعيشون على ذكريات الماضي الذي ذهب أبدا، وهم رغم فقرهم الحالي يصرّون على البقاء في القصر، وعلى ممارسة تقاليد ذلك الماضي بمظاهره كلها، كما لو أن ذلك يعيده إلى الحياة. أما الصغار في القصر فقد انفجروا في الأعوام الثمانية الأخيرة مجانين من نوع آخر، يحطّمون الأثاثَ، يفتحون النوافذ الصدِئة وينثرون زهور الحدائق فوق الأثاث العفن، ويعبثون ببذلات الكبار العسكرية. الكلّ مجنون في القصر. كلٌّ على طريقته. هكذا تبدو لندن للوهلة الأولى، للأسبوع الأول، وربما طيلة السنة الأولى. يراها الغريب مستشفىً كبيراً للمجانين» (نفسه: ١٧٤).

فالملاحظ أن السمان ـ على عكس الكثير من أهل الشرق ـ تُشوّه منذ الوهلة الأولى صورة لندن وأهلها، فتعتبر لندن مستشفى كبيرا للمجانين وتجرّد أهلها من كبر العقل والخُلُق العظيم،

وهذا يدلّ بوضوح على مكانة العقل والأخلاق عند هذه الأديبة العربية القادمة من الشرق: «خلال عامي الأول في لندن أيقنتُ تماما أنني أعيش في مستشفى كبير للمجانين، أصحاب الميني عقل والميني أخلاق» (نفسه: ١٧٥). ثم تفيدنا بأن رؤيتها هذه بدأت تتغير شيئا فشيئا: «وخلال عامي الثاني بدأت رؤيا جديدة للأمور تتضح في مخيلتي وتكوّن خيوط"الحقيقة" من وجهة نظري أنا، أو ربما التفسير الأقرب إلى الحقيقة، كما أراها» (نفسه). ومن هنا نرى السمان تحاول أن تتجرد للحقيقة وترسم صورة جديدة للشعب البريطاني، جديدة بمعنى أنها «صورة متحررة من سيطرة الإيحاءات السلبية التاريخية ونفورنا العفوي من شعب الإمبراطورية الاستعمارية والرؤيا التقليدية الناتجة عنها؛ أن نميّز بين بريطانيا هذه، وبين جيل الشعب البريطاني الطالع وغير المسؤول عما كان (إلا بقدر مؤازرته لاستمرار ما كان). صورة متحررة من ردة الفعل الأولى التي تصعق العقلية الشرقية وتغمر المراقبَ الشرقي بالقَرَف أمام كثير من مظاهر الجنون الإنكليزي؛ قَرَف يبلغ حد الرفض سلفاً والاستنكار، بل وحتى تحريم أية محاولة لفهم جذوره ومدلوله والغوص إلى قاعه» (نفسه: ١٧٦). فالمهمة صعبة للغاية، ولكن السمان تَعِدنا بالقيام بها بالموضوعية وبتخلّيها عن الرواسب الذهنية والإيحاءات السلبية التاريخية. ثم تذكر السمان ألواناً من هذا الجنون والمأساة وأكثرها تعود إلى مصرع الحب والإيمان وتحكّم الحياة الآلية واللامبالاة في الغرب، منها ما يلي:

٢-٣. بروز الحركات الشاذّة وتفشّي الضياع

من الحركات والظواهر التي تلفت نظر السمان في لندن حركة الهيبية، وقد بدأت بشكل حركة عصيان شابة منذ أوائل الستينيات وشغلت السمان كثيراً في كتابها "الجسد حقيبة سفر". إنّها كانت «حركة تطالب بردّ الاعتبار للفرد بعد أن سحقته الآلية والبيروقراطية والطبقية وسيطرة المؤسسات القديمة المتعفنة ووحشية الحياة الصناعية المعاصرة. إذن ثار الهيبيز في محاولة لإيقاف هستيريا التقدم التكنولوجي على حساب الإنسان. من هنا انطلقت حركة الهيبيز في الغرب من دوافع إنسانية رائعة، ولكنهم كانوا – للأسف– أسوأ محامين لأعدل قضية!» (نفسه: ٢٧٦-٢٧٧). إنهم في رأي السمان «يمثّلون الجيل الضائع بلا حب، الجيل الجديد الذي بزغ إلى الوجود بينما شمس إمبراطورية آبائه وأجداده تَغرُب. وهم غرباء عن أهلهم، عن القيم التقليدية التي ما تزال تسود بريطانيا» (نفسه: ١٠٦).

وتعلّق على نشأة هذه الجماعة وأمثالها وتستشهد برأي المثقفين والخبراء في بريطانيا وتقول

معهم: «السبب الأساسي لهذا كله هو افتقار الجيل إلى قضية، وعدم وجود هدف لحياته» (نفسه: ١٠٦). وتنقل عن البروفسور برادلي قوله: «نحن مسؤولون عن جنوح مراهقينا وانغماسهم في تلك الحياة الرافضة اللامسؤولة واللامبالية. بريطانيا لم تعد إمبراطورية، لكن كل ما فيها من مؤسسات وتقاليد وحتى من سياسة خارجية مايزال موروثاً من تلك النظرة المتعالية الاستعمارية العتيقة» (نفسه: ١٩٥).

وهنالك أيضا جماعة "المودرنز" التي يثير مشهدهم الاشمئزاز والقرف عند السمان: «شاهدتُ عدداً كبيراً من الشبّان في الشوارع وقد أطالوا شعرهم وبدت خدودهم طريةً ناعمةً وتفوح منهم رائحة عطر نسائي» (نفسه: ١٥). ولا عجب! فالسمان امرأة شرقية عربية ولا تستسيغ تشبّه الذكور بالإناث. إنها تَدين بالحب وتُبجّله وتُقدّسه أكثر من أي شيء آخر، ومن هنا يُحزنها أن الحب، هذه الأسطورة الإنسانية «في طريقها إلى الاضمحلال (وربما التطور) أيام كان الرجل رجلاً والمرأة امرأةً والحب ديناً» (نفسه: ١٥). وتعتبر ذلك ضياعاً حقيقياً ودليلاً واضحاً على إفلاس المدنية الغربية على الصعيدين الخُلقي والروحي: «إن الضياع الحقيقي الذي يعاني منه بحدة شبّان تلك البلاد ومظاهره المتعددة من روكرز وبيتلز ومودرنز يدل على أن المدنية الغربية الحديثة رغم ما فيها من عظمة آلية قد أفلست في منح الإنسان السلامَ النفسي والطمأنينة الأخلاقية بل إنها تكاد تُشوّهه وتغيّر معالمه نهائياً» (نفسه: ١٦).

ولكن تبقى هنالك علةُ العلل: «عقدة العظمة والإمبراطورية هي وحدها الثغرة بين المواطن وسياسة دولته وهي تقريبا سبب المأساة البريطانية المعاصرة» (نفسه: ١٩٦).

٣-٣. مصرع الإيمان والحب

والسمان حزينة وآسفة إذ إنها ترى تفكك القيم الإنسانية وزوالها وتتذكر مشاهد كانت «تُعبّر ببساطة ووضوح عن موت الحب في عصر الآلة والحروب العالمية، وعن نشوء نماذج جديدة للحب هي في نظرها دمامل على جسد النفس الإنسانية لايمكن أن تدوم، وطحالب في أرض الحقائق العاطفية الإنسانية الخالدة، لا جذور لها، استنبتتها صواعقُ رَجّات انهدام الدين والتقاليد والمفاهيم الكلاسيكية في نفس الإنسان المعاصر» (نفسه: ١٠٢). ولهذا تتسائل في نبرة تشي بالأسى والحزن: «هل كُتب على قرننا أن يشهد مصرعَ هذين الفارسين الشابين أبداً: الإيمان والحب؟!» (نفسه: ٥). ومن آثار اضمحلال الدين والحب روائجُ الشذوذ وتحكّم الآلة حتى في جزئيات الحياة:

«الشذوذ مسموح به، بل ومرغوب كإحدى علامات العبقرية والعقل الإلكتروني يختار لك حبيبتك (أوحبيبك) وإن العقل الإلكتروني يلعب دور (الخاطبة) للشاب العصري» (نفسه: ٥٦). ثم تبدي استغرابها واستنكارها مما يفعله هؤلاء: «إن الأمر يبدو مريراً ومفجعاً بالنسبة لفتاة مثلي جاءت من كوكب آخر أو أبحرت من قرن آخر مايزال يؤمن ببعض القيم الروحية والقوى الميتافيزيكية: الحب من أبرزها. منذ الآن أستطيع أن أرى مصرع نصف تراث الإنسانية الأدبي والفكري الذي شيّده الإنسان فوق صخرة شامخة اسمها الحب» (نفسه: ٥٦). ثم تضيف قائلة: «إن عملية "شراء كلب" للأسرة ستصبح أكثر عاطفيةً وإنسانيةً من عملية "اختيار حبيبة. "على الأقل سوف يختار كلبه لأنه أحبه».

ولعل من المفيد الإشارة إلى أن بعض الباحثين يرون أن الهوية قد تتحقق في أشكال أخرى من الانحراف مثل الشذوذ الجنسي (حنفي، ٢٠١٢م: ٢٦). كما يرون أن الشذوذ ينتشر «في الطبقة العليا ترفاً، وفي الطبقة الوسطى مزاجاً وفي الطبقة الدنيا عِوَزاً وتعويضاً» (نفسه: ٢٧).

وعن مصرع الحب والإيمان نشأت ظواهر أخرى، منها ما يلي:

٤-٣. الإباحية والتعرّي كصرخة احتجاج

تقارن السمان بين نظرة بلادها تجاه المرأة ونظرة الغرب إليها وترى أن المرأة في بلادها «شيء محرم ومقدس وعيب» (نفسه: ١١٤). في حين أنها في أوروبا آلةٌ رخيصة ومسؤولة عن كثير من الانحرافات: «رخص الجنس وبروده وآليته في لندن قد يكون مسؤولا عن كثير من الانحرافات الغريبة التي تُصيب الناس هناك» (نفسه: ١١٥). ومن هذه الانحرافات، الشذوذ والسادية والإجرام، وظاهرة اختطاف البنات وقتل الفتيات بين الـ (٧-١٠سنوات) بعد اغتصابهن من قبل ساديين أذكياء جدا.

وتعلّق السمان على هذه الظاهرة بقولها: «وإذا كان العربي الجاهلي يقتل البنات خوفا من العار (الجنس) فإن قتل البنات يتم هنا لأنه لم يبقَ هنالك ما يهزّ القاتل "جنسيا" إلا شيء جديد ومنحرف ومن ابتكاره، وهو التعذيب والقتل!» (نفسه: ١١٥). وتُحدّثنا عن صدور قانون في لندن بتحريم البغاء العلني وظهور وكالات بديلة أخرى كوكالات "المساج" و وكالات تزويد السواح بـ"المرافقات" و"الدليلات" اللواتي يرشدن السواح إلى قصور اللذة الحديثة، لا إلى قصور بريطانيا الأثرية (نفسه: ٤٠٨، ٤٩٦-٤٩٧).

وتقارن بين لندن وباريس في الإباحية والتعري بقولها: «الواقع أن لندن هي العاصمة الأوروبية الوحيدة التي يندر أن تمشي فيها فتاة لا ترتدي الميني جوب، ولم تعد لندن الراهبة التي تتعرّى سرّاً وإنما سرقت من باريس علناً شهرتها كمدينة مجنونة لا مبالية وسبقتها بأشواط في هذا الميدان» (نفسه: ١٠٧-١٠٨). وليس هذا فحسب؛ إذ تطورت موضة "الميني جوب" تطوراً عنيفا إلى مرحلة "الميكرو جوب" أو "اللاجوب"، حتى بدت لابسات "الميني جوب" العادي من الأقطار الأخرى شبه محافظات، مثلي مثلاً» (نفسه: ١٠٣)، ثم تعلّق على ظاهرة التعرّي وشيوعها بقولها: «ربما كانت ردة فعل المرأة تهدف إلى منحها إمكانيات أكبر لإظهار أنوثتها، والمرأة تُعرّي غالبا أنوثتها في حالات الاحتجاج على هدرها» (نفسه: ١٠٣).

٥-٣. الحركات الدينية المزعومة وموقفها الاستغلالي

وتنقل السمان إلينا عن وجود ردّات فعل مضادّة في لندن تتمثّل في الردّة الدينية والرجوع إلى اللّه وتتجلّى في مجالات مختلفة كالأغاني البريطانية في تمجيد المسيح (ع) وتمجيد اسم الرب (نفسه: ٤٧٢)، ولكن هذه النزعات الدينية أيضا عرضة للخطر إذ «تنتهز بعضُ الأديان المزعومة جوعَ الشبيبة إلى اليقين، فتُنتج أفلاما تلفزيونية إعلانية عن بضاعتها» (نفسه: ٤٧٢). ولعل الكنيسة قد أحسّت بخطورة انحراف مسيرة العودة إلى اللّه، «فأكثرت من إعلاناتها عن مواعيد الوعظ والصلاة. وتحاول الكنيسة من جهة أخرى جذب الشبيبة إليها بإقامة الحفلات الراقصة تحت رعاية الكاهن» (نفسه: ٤٧٣). ومن هذه التيارات الدينية المنحرفة بدعةُ كريشنا، وتعتبرها السمان استعماراً هندياً لبريطانيا: «وهكذا وبعد أن استعمرت بريطانيا شبيبة الهند طويلاً تردّ لها الهند الضربةَ فتستعمر الشبيبة البريطانية. والاستعمار على الطريقة الهندية أشدّ خطراً لأنه استعمار لرقعة النفس البشرية لا استعمار للأرض فحسب، ولأنه يتم برضى الطرف الآخر واستسلامه الكامل» (نفسه: ٤٠٢- ٤٠٣).

٦-٣. تحضير الأرواح وممارسة السحر

وفي لندن حلّ الاعتقاد بالسحر وممارسة تحضير الأرواح محلَّ المعتقدات الدينية الصحيحة: «تحضير الأرواح في لندن هو اليوم موضوع الساعة أكثر من السوق الأوروبية المشتركة وتبديل العملة» (نفسه: ٢٧٤). وللسَحَرة مجلاتهم ومنابرهم وجماهيرهم: «من يزور لندن اليوم يشاهد في واجهاتها

مجلات جديدة تتحدث عن السحر وعوالم ماوراء الطبيعة، مجلات تروج اليوم كما راجت قبلها مجلات الجنس والمخدرات. فالسحر هو الموضة الجديدة، وتحضير الأرواح هو صرعة الموسم» (نفسه: ٢٧٩).

والجدير بالذكر أن الاعتقاد بالسحر والخرافات مما «كانوا يأخذونه على أهل الشرق. فالشرق في الأدب والثقافة الغربيين مكان غريب ومظلم، فيه أناس متكاسلون، بدويون، غير مهذبين، يؤمنون بالخرافات والسحر» (هدايتي، ١٣٩٥ش: ٥٨).

٧-٣. تفكك القيم ونشأة النوستالجيا

وتعترف السمان نفسها بأن رؤيتها للندن قد تغيرت بعد هزيمة ١٩٦٧م ولهذا تركّز -مثلما سبق- على الوجه الثاني والبشع للندن أكثر من ذي قبل وتشبّه لندن السبعينات بـ«غابة استبيح فيها كلّ شيء» (نفسه: ١١٣). وهذا التغير والتفكك في منظومة القيم الأخلاقية مما يثير الحزن والألم: «أندُبُ لندنَ القديمة، لندن الدقة والتهذيب. أيام كان الفرد الإنكليزي مهذبا إلى حد أنك تدوس على قدمه فيعتذر هو عن حشرها تحت قدمك!» (نفسه: ٤٥٠). وليس هذا فحسب؛ إذ إنّك «تجد أكثر الناس في لندن مصابين بأعراض الاستخفاف بالعمل واللامبالاة والتأزم النفسي الغامض. سائق التاكسي يرمي بوجهك قطعة النقود (الإكرامية). إذا لم يعجبه المبلغ! مستوى النظافة في المطاعم انحدر إلى حد لا يوصف» (نفسه: ٤٥١). وتنقل إلينا أخباراً عن تجاهل السيارات والمارّة على السواء لشارات السير وأضواء المرور، وتتحدث عن انتقال عدوى الفوضى إلى المسرح أيضاً وأن تأخّر عرض المسرح من ٥ إلى ١٠ دقائق قد صار مألوفاً (نفسه: ٤٥٢). يضاف إلى ذلك كله الغزو الثقافي الأمريكي ضد اللغة البريطانية الأصيلة في عقر دارها، وشيوع الابتذال الإعلامي في وسائل الإعلام البريطاني: «الابتذال في الإعلانات التلفزيونية حيث أصبحنا نسمع عبارات أميركية بغيضة تُشوّه جمال اللغة الإنكليزية المحافظة الأصيلة» (نفسه: ٤٥٢).

وتُحذّرنا السمان من ركوب سيارات التاكسي غير الشرعية وهي تتوقف هناك لاقتناص الغرباء، وتتطرق إلى الفقرين المادي والروحي في بريطانيا بقولها: «الفقر المادي والروحي على السواء وهنالك جرائم مبعثها الفقر المادي ابتداءً من اختطاف حقائب اليد وانتهاءً بسرقة الأسنان الذهبية من أفواه الموتى ولكن هنالك جرائم أخرى مبعثها الفقر الروحي وأهمّ محاصيلها جرائم الاغتصاب الغريبة التي يرتكبها مهووسون والتي تستهدف الأطفال غالباً. ومن الملاحظ أن هذا

النوع من الجرائم أبطاله دوماً من الإنكليز وأبناء البلد، لا من الأغراب أو حتى الإنكليز السود» (نفسه: ٤٤٧-٤٤٨). ولهذا كله نراها تعبّر عن عاطفتها الشرقية بقولها: «فلندن مدينة تمنحك كلَّ شيء إلا الأنس والرفقة الإنسانية. تستطيع أن تشتري في لندن أجمل فتيات العالم، لكنك لا تستطيع شراء لمسة حنان واحدة» (نفسه: ٤٧٤). ولهذا كله أيضا نشأت الرغبة عندهم في الهرب إلى الماضي: «موجة الحنين إلى الماضي (النوستالجيا) تنتاب الناس هنا على كل صعيد» (نفسه: ٤٥٢).

٨-٣. سُقم الاقتصاد وانهيار الصناعة

وأما على الصعيد الاقتصادي فتعاني بريطانيا اليوم من مشاكل عديدة، بسبب فقدانها لمستعمراتها ورواج البضاعات المستوردة وحلول الآلة محل الأيدي العاملة وغيرها من الأسباب: «بالإضافة إلى المستعمرات التي كانت تُدِرُّ على بريطانيا ذهبا كثيرا توقّف مع استقلال هذه المستعمرات، نجد أن الصناعة التي كانت عصب بريطانيا الأساسي بدأت بالانهيار لأسباب كثيرة، أبرزها أن طبيعة العصر بدأت تتجاوزها، ثم إن بريطانيا تستورد غالبا المواد الخام وتعيد تصنيعها ثم تُصدّرها من جديد، لكن العامل البريطاني لم تَعُد له المهارة التقنية السابقة. ومهما كانت الآلة متقنةَ الصنع فإنها لا تُنجز الكثير إذا كانت اليد التي تُديرها مصابةً بالضجر والسأم واللامبالاة والرغبة في الهرولة إلى أقرب حانة جعة أو مكتب مُراهنات أو مُظاهرة» (نفسه: ٤٤٩). وهنالك أيضا رواج البضائع والمصنوعات غير البريطانية، بحيث لا تجد في المتاجر البريطانية شيئا بريطاني الصنع (نفسه: ٤٤٨).

٩-٣. من المسرح الشكسبيري إلى الأفلام والمسارح التافهة

وعلى الصعيد الثقافي هنالك إقبال الناس الهائل على أفلام الرعب والجنس والأفلام عن العفاريت والأرواح الشريرة والشياطين، وبالتالي ارتفاع نسبة جرائم القتل والاغتصاب التي سيقوم بها شياطين يحتلون أجساد الرجال الأبرياء! (نفسه: ٤٠٣-٤٠٤). والمرء في لندن السبعينيات يجد نفسه «في بحر من الأفلام التافهة، ذات التقنية المهنية الجيدة. وإن موجة التخدير بالرعب والجنس انتقلت لتفسد أجمل ما في لندن: مسرحها» (نفسه: ٤٦١). وعن انتقال العدوى إلى المسرح تقول السمان: «في العشرينات نشأ تيار مسرحي غرضه مواجهة الناس بحاجاتهم الطبيعية وتقديمها على المسرح دونما حرج، كالتجشؤ (المرفوض اجتماعيا) وقضاء بقية الحاجات الطبيعية. واليوم يحاول المسرح متابعة

ذلك عن طريق صدم الجمهور بجسده المنسي» (نفسه: ٤٦٢). مع هذا كله ترى السمان أنه «من الظلم لمسرح لندن الادعاء بأنك لن تجد فيه إلا جنساً وعنفاً، فمسرح شكسبير مازالت له مكانته، وكلّ نشاطات المسارح الجدّية الأخرى. وكذلك من الظلم الادعاء بأنّ لندن لم تعد تُقدّم غير الرعب المبتذل» (نفسه: ٤٦٣).

ونظرة سريعة إلى البرامج السينمائية في لندن تبرهن على أن «السينما التي تهدف إلى تحقيق إثارة رخيصة عابرة هي السائدة حالياً» (نفسه: ٤٦٨). وهناك بالطبع بعض الاستثناءات. والدلائل تشير إلى أنّ لندن «تلتقط من أميركا كلّ الموجات الاستهلاكية الإباحية. وآخر موجة تم وصولها إلى الشواطئ البريطانية هي موجة "الستربتيز" الرجالي» (نفسه: ٤٧١)، أو ما يُسمَّى بـ"نوادي التعرية الرجالية"، وهذا العري الرجالي أخذ يجتاح كلّ المجالات الأخرى خارج السينما، وحتى في النوادي الليلية.

١٠-٣. بريطانيا الإيجابية

وفي محاولة لإقامة التوازن بين الجانب السلبي والجانب الإيجابي تتطرق السمان في مواضع متفرقة من كتابها إلى الوجه الإيجابي والحسن لبريطانيا أيضاً، وجه جميل ورائع للندن يشدّها إليها دائماً رغم مغادرتها لها وتدعو العرب لاحتذائها: «وبعيداً عن هذا كلّه يُطلّ الوجه الآخر للندن، المدينة العجيبة، وجه مشرق وإنساني وفيه أمثلة تُحتذَى نفتقر إليها في عالمنا العربي، وكنت أحسّ بالغيرة كلّما مررتُ بإحداها» (نفسه: ١٢٠- ١٢١). إن لندن تستقطبها لميزاتها الجميلة: «عن لندن الأخرى أتحدّث هذه المرّة. عن لندن الجميلة، لندن الحقيقة، لندن الإنسان والحرية، لندن الفن والفكر والمسرح، لندن الطريفة والبريئة، لندن التي تشدّني إليها أبدا أينما كنتُ، أرحَل عنها إليها، أغادرها، ولكن تجدني أبداً راجعةً. عن لندن المعتقة بالمُثُل والإنسانية أكتب هذه المرة. عن عشرات الأشياء التي نحن بأمسّ الحاجة لاستيرادها قبل أفلام جيمس بوند وأغاني البيتلز وأخلاق الجيرك» (نفسه: ١٢٣). فلا عجب إذا لاحظناها تحنّ إليها دوماً: «أجدني دوماً أعود إلى لندن بحنين العاشق وشراسة المجرم» (نفسه: ٢٧٠). وتُبدي إعجابها بالتنوع الفكري والخصب الفني في لندن بقولها: «تظلّ لندن الثقافية ذلك المركز الفكري الغنيّ بمختلف النشاطات الفنية التي تتفجر في شرايين حياتها الإنسانية، ويظلّ أهم ما يميز لندن هو ذلك الألق والتنوع في مختلف الاتجاهات المعاصرة والكلاسيكية» (نفسه: ٢٨٠). ثم تحدثنا عن اهتمام الإنكليز البالغ بمسرحيات شكسبير

الوقورة وأن شكسبير ما يزال جمهوره أكبر من جمهور العري والصرعات. وفي لندن هذه لابد من النضج والتثقف والوعي وفيها «يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى أن ينضج ويتثاقف مهما قاوم ذلك! إنه مُرغَمٌ على أن يتعلم ويرى. في لندن كلّ شيء: مسرح قديم، مسرح حديث، لا مسرح، مسرح شكسبير، سينما، مئات من دور السينما» (نفسه: ١٢٦-١٢٧).

٤. النتيجة

□ إن التفاوت الثقافي بين السمان وبين من تكتب عنهم من الإنكليز (أو الآخر الغربي) أمر له دوره الخطير في الأحكام التي تُطلقها، كما أن الموقف السياسي لها يَحكم طريقتَها في تناول الأحداث؛ فالسمان باعتبارها إنسانةً شرقيةً وعربيةً ما تزال تؤمن ببعض القيم التقليدية (كالحب مثلا) وتُقدّسها، لكن التصور الخاطئ وغير الأخلاقي للإنسان الحديث قد انتصر على التصور الأخلاقي له، وصار المجتمع الغربي يسير في اتجاه متعارض مع الطبيعة الإنسانية. وعلى الصعيد السياسي أيضا تبدّل موقف السمان من بريطانيا بعد هزيمة حزيران سنة ١٩٦٧م وتشوّهت رؤيتها بل صارت عدائيةً بعد النكسة بعد ما كانت محوطةً بشيء من الإعجاب والتمجيد والتبجيل والافتتان. فصورها عن الآخر البريطاني في هذه المرحلة تخضع في الغالب للذاتية وتتبدّى سلبيةً ومشوهةً، على الرغم من رغبة السمان في الموضوعية وجهدها في تجاوز الصورة النمطية (الكراهية) التي ترسمها المخيلة العربية للآخر البريطاني.

□ الآخر البريطاني رغم جميع ما يتمتع به من رفاهية وإمكانيات مادية وثقافية يجابه واقعاً مأزوماً ومأساوياً يتمثل في مصرع الحب والإيمان وتحكّم الحياة الآلية ورواج اللامبالاة هناك وقد نتج عن هذا كله رُخص المرأة والشذوذ والإباحية والعنف واختطاف البنات والبنين واغتصابهم وجرائم القتل و الاستخفاف بالعمل ورواج البضائع الأجنبية وبالتالي سقم الاقتصاد البريطاني وانهيار الصناعة. إن عقدة العظمة والإمبراطورية ثغرة أساسية بين المواطن وسياسة دولته وهي تقريباً سبب المأساة البريطانية المعاصرة. وهناك أيضا الغزو الثقافي الأمريكي الواسع. فبريطانيا ودول الاتحاد الأوروبي ترى في حليفتها الكبرى أمريكا تهديداً مباشراً وغير مباشر لشخصيتها وهويتها الثقافية. والحق أن الاتجاهات الأمريكية تتدفق إلى الحضارة الأوروبية والانجليزية، وبريطانيا تلتقط من أمريكا كلّ الموجات الاستهلاكية والإباحية. ولهذا نجد أن التمثيلات والصور التي تقدّمها

السمان تزداد سلبيةً وعتامةً مع التزايد المستمر لهيمنة نمط الحياة والثقافة الأمريكية على الغرب.

□ إلى جانب هذه الصور السلبية تحاول السمان أن تلتزم الموضوعية والحياد وأن تُقدّم صورةً أخرى متحررةً من سيطرة الإيحاءات السلبية التاريخية والنفور العربي العفوي من شعب الإمبراطورية الاستعمارية، ولهذا تلحظ في بريطانيا أموراً حضاريةً على المستوى الإنساني تلفت نظرها وتدهشها وتثير غيرتها، وأهمّها الحرية والصدق والكرامة وتحصر السمان انحيازها في الفن الأصيل أو الإبداعي: السينما والمسرحية الشكسبيرية الأصيلة. وبهذا يعود الآخر البريطاني إلى ممارسة تفوقه الثقافي على الأنا بعد أن صار سلبيا ومشوّهاً إلى حين، غير أن حجم التحولات والقضايا التي يعيشها كل مجتمع حجم كبير ومتشعب لايمكن لعمل فني أن يحيط به أو يلتقطه التقاطا موضوعيا تاما؛ من ثم تكون علاقة الإبداع في أشكاله المتباينة بالواقع أو المجتمع علاقة غير مباشرة وأبعد ما تكون عن التطابق. أضف إلى ذلك كله أن الكتّاب ـ وليس عندهم اختصاص في الجغرافيا إلا في النادر . إنما يهتمون من العالم الخارجي بما يثير اهتمام قارئيهم. صحيح أن هذه الصور أقلّ قيمة مما تقدّمه الوثائق الرسمية لكنها أيضا ذات قيمة كبيرة وقوة تأثير تجعلها طريفةً وعديمة النظير وتمنحها صفة الخلود والبقاء بتسجيلها في مخيلة الشعوب.

□ ليس همّ السمان شخصياً وهي لا تتحدث عن الأنا كفرد منعزل. إن الأنا عندها قد تكون شخصية أحيانا وقد تكون جماعية أو وطنية أو إنسانية. ثم إن لندن بالنسبة للسمان أداة وعي ومحاسبة للذات، ترى من خلالها سلبيات الذات وإيجابياتها، كما تُنبّهنا من خلالها للمخاطر والآفات التي تهدّدنا نحن أيضاً وتهدّد الجيل العربي والإسلامي الصاعد. فالشعوب العربية والإسلامية تعيش هي الأخرى أزمة هوية حقيقية بسبب هيمنة نمط الحياة الأمريكي وفرض العولمة التي تستهدف هيمنة الأمريكان على مقدّرات العالم وفرض نهجهم السياسي والثقافي والاقتصادي والإعلامي على سائر الأمم.

الهوامش

غادة السمان (١٩٤٢م–) شاعرة، صحفية، رحّالة سورية، وأديبة العرب الكبرى. صار أدبها عالميا بعد ما تُرجم الكثير من مؤلفاتها إلى مختلف اللغات. درست اللغة الإنكليزية وآدابها في جامعات دمشق وبيروت ولندن والقاهرة، «فمن البدهيّ أن تؤدي تلك الدراسة إلى تأثر الكاتبة بالأدب الإنكليزي وبالآداب الأوروبية الأخرى» (عبود، ٢٠٠٢م: ٦٤). زارت العديد من الأقطار في مهمّات صحافية ودراسية، وعندما صدر حكم غيابيّ ضدها في سوريا اتخذت من لندن وباريس

مستقرا لها. أعمال السمان «أوضح مثال لانفتاح الأدب العربي المعاصر في سورية على المؤثرات الأجنبية، وعلى صفحات مجموعتها"عيناك قدري"يكاد المرء يقرأ معظم الأسماء اللامعة في الأدب العالمي المعاصر، وتمتد هذه الأسماء من شخصيات الميثولوجيا والفلسفة اليونانييتين مثل برميثيوس وسقراط، إلى الفلاسفة الأوربيين مثل ديكارت وكانت، إلى الشعراء الإنكليز مثل ملتون وشلي، إلى مختلف الكتّاب الأوربيين المحدثين. وفي مجموعتها الثانية "ليل الغرباء" (١٩٦٦م) يطّرد هذا الاتجاه» (الخطيب، ١٩٩١م: ٨٥). يقول عنها الناقد غالي شكري: «هكذا يتحتم على النقاد أن يروها على حقيقتها، ألا يقعوا في حبائل الخداع أو البدعة التي ننفرد بها ما يسمى بالأدب النسائي. لا علاقة لغادة بما تكتبه أكثرية الأخريات؛ وإنما علاقتها التي يمكن الحديث عنها بالأدب العربي الحديث، بكتابات نجيب محفوظ ويوسف إدريس وحنا مينة وغائب طعمة وفؤاد التكرلي ويوسف الأشقر وغسان كنفاني وغيرهم ممن يستحيل وصف أدبهم بأنه أدب رجالي، بل هو أدب فحسب، هو أدبنا، وجداننا وعقلنا» (شكري، ١٩٩٠م: ١٠٢).

المصادر

أ) الكتب العربية

ابن منظور، جمال الدين ابن مكرم (لاتا)، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر.

الأسد، ناصرالدين (١٩٩٧)، **نحن والآخر؛ صراع وحوار**، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية لدراسات والنشر.

أفاية، محمد نورالدين (١٩٩١)، **الغرب في المتخيل العربي**، الشارقة: منشورات دائرة الثقافة و الإعلام.

باجو، دانييل هنرى (١٩٩٧)، **الأدب العام والمقارن**، ترجمة غسان السيد، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

برونييل، بيير وآخرون (١٩٩٩)، **الوجيز في الأدب المقارن**، ترجمة غسان السيد، دمشق: مطبعة زيد بن ثابت.

بيشوا، كلودوأندره م. روسو (٢٠٠١)، **الأدب المقارن**، ترجمة أحمد عبدالعزيز، الطبعة الثالثة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

تودوروف، تزفيتان (٢٠٠٩)، **الحياة المشتركة**، ترجمة: منذر عياشى، ط ١، أبوظبي، المركز الثقافي العربي.

حمود، ماجدة (٢٠٠٠)، **مقاربات تطبيقية فى الأدب المقارن**، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

حنفي، حسن (٢٠١٢)، **الهوية**، ط١، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

الخطيب، حسام (١٩٩١)، **سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية**، الطبعة الخامسة، دمشق: مطابع الإدارة السياسية.

السمان، غادة (١٩٩٦)، **الجسد حقيبة سفر**، الطبعة الخامسة، بيروت: منشورات غادة السمان.

شحاته، عبدالمنعم (٢٠٠١)، **الأنا و الآخر**، سيكولوجية العلاقات المتبادلة، دار إيتراك للطباعة.

شكري، غالي (١٩٩٠)، **غادة السمان بلا أجنحة**، الطبعة الثالثة، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

عبدالعزيز، أحمد (٢٠٠٢)، **نحو نظرية جديدة للأدب المقارن**، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

فهيم، حسين محمد (١٩٨٩)، **أدب الرحلات**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون.

ندا، طه (لا تا)، **الأدب المقارن**، بيروت، دار النهضة العربية.

الهروط، بلال سالم (٢٠٠٨)، **صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية**، أطروحة للدكتوراه، أردن: جامعة مؤتة.

ب) المقالات العربية

الحاج صالح، رشيد (٢٠١٤)، «العلم وأزمة المجتمع الغربي المعاصر هابرماس نموذجا»، **مجلة جامعة دمشق**، المجلد ٣٠، العدد ٣و٤، صص ٤٦٣-٤٩٦.

شنوف، سمية (٢٠٠٥)، «تمظهر الآخر في روايات غادة السمان»، **إنسانيات**، العدد ٢٨، صص ٧٣-٧٨.

عبود، عبدة (٢٠٠٢)، «صورة الآخر الغربي في أدب غادة السمان»، **الموقف الأدبي**، العدد ٣٧٥، صص ٦٤-٧٩.

ج) الكتب الفارسية

شفيعى كدكنى، محمدرضا (١٣٨٧ش)، **ادوار شعر فارسى**، الطبعة الخامسة، طهران: سخن.

د) الرسائل والمقالات الفارسية

نامور مطلق، بهمن (١٣٨٨ش)، «درآمدى بر تصويرشناسى: معرفى يک روش نقد ادبى و هنرى در ادبيات تطبيقى»، **فصلية مطالعات ادبيات تطبيقى**، السنة الثالثة، العدد ١٢، صص ١١٩-١٣٨.

هدايتي، نازنين (١٣٩٥ش)، **تجليات الآخر الأجنبي في أدب الرحلات لغادة السمان**، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة تربيت مدرس، طهران.

دیگری انگلیسی در آیینهٔ منِ متفاوتِ شرقی

«بررسی موردی: کتاب الجسد حقیبة سفر اثر غادة السمان»

هادی نظری منظم*[1]، خلیل پروینی[2]، نازنین هدایتی[3]

۱. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه تربیت مدرس

۲. استاد گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه تربیت مدرس

۳. کارشناس ارشد زبان و ادبیات عربی دانشگاه تربیت مدرس

چکیده

غاده السمان رمان نویس، شاعر و جهانگرد سوری تاکنون پنج سفرنامه نوشته‌است. کتاب اول او «**الجسد حقیبة سفر**» نام دارد و در آن به بررسی دیگری اروپایی پرداخته و بیشترین سهم را به دیگری انگلیسی اختصاص داده‌است. روش ما در این مقاله توصیفی ـ تحلیلی است و به طور ویژه به بررسی دیگریِ انگلیسی و فرهنگ وی از منظر تصویرشناسی خواهیم پرداخت تا بدین‌وسیله به درک اوصاف و ویژگی‌های من و دیگری، توهمات، انحراف‌های فکری و ذهنی هر یک در قبال دیگری نائل آییم و از خطرات بی‌شماری که ما و نسل نوپای ما را تهدید می‌کند، پرهیز نماییم. از اشارات پراکندهٔ سمان برمی‌آید که دیگری انگلیسی ـ با وجود پیشرفت‌های مادی، و آزادی، صداقت، احترام و فرهنگی که از آن برخوردار است، امروزه با واقعیت‌هایی اسفبار مواجه است. این واقعیت در مسائل و پدیده‌های مهمی نمود دارد که مهم‌ترین آن‌ها فروپاشی ارزش‌های عصر کهن (عشق، دین، اخلاق) و نبود جایگزینی مناسب برای آن‌هاست. سمان می‌کوشد تا به عینیت‌گرایی پایبند باشد و تصویری جدا از سیطرهٔ مفاهیم منفی تاریخی و نفرت خودجوش عرب‌ها از ملت امپراتوری استعمارگر ارائه دهد؛ ازاین‌رو به تمجید از آزادی، صداقت، احترام و سیطرهٔ هنر و فرهنگ در انگلستان می‌پردازد، اما حجم تحولات و مشکلاتی که هر جامعه با آن روبه‌روست، حجم زیاد و متنوعی است و اثر فنی و ادبی نمی‌تواند بدان احاطه داشته و یا با عینیت‌گرایی و واقع‌بینی کامل بدان بپردازد؛ به همین دلیل، ارتباط اثر ابداعی با واقعیت‌ها یا جامعه، ارتباطی غیرمستقیم و به دور از تطابق و تناسب است.

کلیدواژه‌ها: تصویرشناسی؛ دیگری؛ انگلستان؛ غادة السمان؛ الجسد حقیبة سفر.

*نویسندهٔ مسئول: hadi.nazari@modares.ac.ir